آثار التخلي على سيكولوجية الطفل:
حالة نزلاء "دار الأطفال"

خلود السباعي
أستاذة علم النفس
جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء - كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المحمدية

المقال منشور في " المجلة المغربية لعلم النفس" بتاريخ 2018/07/28
rmpsy.com

ليس الإقصاء الاجتماعي كما قد يتبادر إلى الذهن ظاهرة مرتبطة بسن الرشد، وإنما قد نجد بعض معالمه أو جذوره ضمن ظروف الطفولة المبكرة. فلما يتعلق الأمر بطفولة تواجه ظواهر اجتماعية وأسرية تعاني من صعوبة الاندماج، في غياب وجود هيئات اجتماعية مساعدة تقوم بعمليات الدعم والرعاية والمساعدة، فإنه يبقى من المحتمل أن تتحول هذه الظواهر الإقصائية إلى ظواهر وراثية.

وتمثل مؤسسات الرعاية الاجتماعية بشكل عام، وفي مقدمتها المؤسسات المكلفة بالأطفال والتي كانت تسمى سابقا بالملاجئ والخيريات، أحد التدابير التي تسعى إلى التخفيف من وطأة الإقصاء، ومنح هؤلاء الأطفال فرصا تساعدهم على تحقيق الاندماج الاجتماعي. وفي هذا الإطار يأتي اهتمامنا بعينة من الأطفال في وضعية صعبة، ألا وهم نزلاء "دارالأطفال". وتمثل "دار الأطفال" إحدى مؤسسات الرعاية الاجتماعية، التي كانت تعرف إلى عهد قريب "بالخيرية الإسلامية"، والتي تتلخص مهمتها في إيواء ورعاية شرائح مختلفة من الأطفال في "وضعية صعبة " وفي مقدمتهم:

- الأطفال اليتامى.
- الأطفال الذين يعيشون في أوضاع التفكك الأسري.
-الأطفال الذين تعاني أسرهم من الفقر والهشاشة بشكل يجعلها عاجزة عن رعايتهم والتكلف بنفقاتهم.
- الأطفال المتخلى عنهم.

فإذا كانت دار الأطفال تأوي عددا من الأطفال في وضعية صعبة، فإن أوضاع الأطفال المتخلى عنهم تبقى الأكثر صعوبة وتعقيدا، سواء بالنسبة للنزلاء أنفسهم، أو بالنسبة للمشرفين على تسيير المؤسسة وذلك لاعتبارات متعددة يمكن تلخيصها في كونهم: الأطفال الذين لا مأوى لهم غير المؤسسة، مما يفرض على هذه الأخيرة أن تتكلف بكل احتياجاتهم المادية منها والمعنوية. الشيء الذي غالبا ما تعجز عنه هذه المؤسسات في ظل ما تتوفر عليه من إمكانات ضئيلة، سواء على مستوى البنيات التحتية أو الإمكانيات المادية أو البشرية. وبناء على ذلك، تفيد الملاحظات العينية بأن هذه العينات من الأطفال، يشكلون داخل المؤسسات التعليمية، الفئات الأكثر تعرضا للمشاكل المدرسية مقارنة بغيرهم. وذلك سواء على مستوى ارتفاع نسبة التعثر الدراسي، الهدر المدرسي، صعوبة الاندماج في التعليم التقني والتكوين المهني. أما على مستوى الانضباط فإنهم يمثلون الفئات الأكثر ميلا إلى الشغب وممارسة العنف داخل المدارس.

وبناء على هذه الخصوصيات، توخينا في هذا العمل الاهتمام بهذه العينات من الأطفال، بغرض فهم الأسباب الكامنة وراء هذه الاضطرابات التعلمية والسلوكية داخل المدارس، ومدى ارتباطها بالانعكاسات

السيكولوجية لوضع التخلي على شخصياتهم في بعدها العاطفي، المعرفي والسلوكي. ومن بين التساؤلات التي نطرحها في هذا المجال:

- إلى أي حد تساهم هذه المؤسسات التي أنشئت من أجل احتضان الأطفال في وضعية صعبة، إلى انتشالهم من هذه "الوضعية"؟
- إلى أي حد يمكننا القول بأن وجود الأطفال ضمن هذه المؤسسات وانتمائهم إليها، يمنحهم الإحساس بأنهم لا يعيشون في وضعية صعبة؟
- إلى أي حد تتمكن هذه المؤسسات من ترميم الشرخ الحاصل بفعل الفقدان، ومساعدة الطفل على بناء هويته بشكل متناغم؟ تجاوز هواجس الخوف؟ وإعادة نسجه لروابط تمكنه من التغلب على اغتراب الذات، تقبله لماضيه، تمتعه بحاضره، وتخطيطه لمستقبله؟

وسعيا للإجابة عن بعض من هذه التساؤلات، قمنا بدراسة ميدانية حاولنا من خلالها الوقوف على بعض الجوانب السيكولوجية لهؤلاء الأطفال، بغرض تسليط الأضواء على خطورة انعكاسات "التخلي". وبناء على ذلك فإننا لم نسع من خلال هذا العمل إلى الحديث عن واقع المؤسسات أو المراكز الإيوائية بما تعانيه من صعوبات لوجيستيكية أو تدبيرية، بقدر ما كان هدفنا، الوقوف على بعض المعالم النفسية والعقلية والسلوكية لنزلاء "دار الأطفال"، بغرض معرفة مدى تمكنهم في ظل عيشهم ضمن هذه المؤسسات من تحقيق الاندماج وتجاوز الشرخ الحاصل بفعل "التخلي".

التخلي كمفهوم وكظاهرة :

مثلت ظاهرة "الأطفال المتخلى عنهم" إلى عهد قريب إحدى المواضيع "الطابو"، التي لم يكن من السهل طرحها أو مناقشتها، لما تحيل عليه من مشاكل اجتماعية ذات بعد أخلاقي قيمي، يفضل المجتمع السكوت عنها. إلا أن تفاقم هذه الظاهرة، بسبب ما عرفته المجتمعات الإنسانية عموما من تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة، ساهمت في شيوع الفقر وتعدد مظاهر الهشاشة، أصبحت تستدعي الاهتمام بهذه الظاهرة وطرحها بكيفية استعجالية. وذلك ترقبا لما يمكن أن يترتب عنها من انعكاسات خطيرة تمس بصحة المجتمع وبمدى استقراره وأمنه سواء على المستوى المادي أوالمعنوي. ولقد وصل الوعي بخطورة هذه الظاهرة، إلى درجة دعت معه بعض الدول المتقدمة إلى إنشاء ما سمته La pédiatrie sociale[1]، نظرا للتزايد الملحوظ للمشاكل الاجتماعية والأوضاع الصعبة للأطفال، والتي غالبا ما تتم معاينتها ضمن كل من المستشفيات ومصحات الولادة.

ولا يخرج المغرب عن هذا السياق العالمي، بسبب ما عرفه في السنوات الأخيرة من تحولات اقتصادية واجتماعية، ساهمت في تفكك كثير من العلاقات التضامنية وفي مقدمتها العلاقات الأسرية. مما ساهم في بروز ظاهرة "الأطفال في وضعية صعبة"، وفي مقدمة ذلك التزايد الملحوظ في نسبة الأطفال المتخلى عنهم، وذلك بشكل لم يعد من الممكن السكوت عنه أو تجاهله. الشيء الذي أدى إلى إنشاء مجموعة من المؤسسات، التي شكلت نقلة نوعية من العمل التطوعي الإحساني إلى العمل المقنن ضمن مؤسسات رسمية عرفت بمؤسسات الرعاية الاجتماعية. هذه الأخيرة وعددها 1347 مؤسسة، موجودة بمختلف جهات المملكة، أصبحت تمثل بنيات رسمية للاستقبال غايتها الرعاية والحماية للأشخاص في وضعية صعبة أو غير مستقرة، أو في وضعية احتياج سواء كانت هذه الوضعيات دائمة أو مؤقتة. وفي ظل هذه المنظومة تم استبدال صفة "الخيريات" بمؤسسات الرعاية الاجتماعية، كما تم إلغاء صفة "النزلاء"، وتعويضها بصفة المستفيدين"[2].

[1] - M.José Rubio y Silvina Monteros, La exclucion social: Teoria y practica de la intervencion, Editorial CCS, Madrid, 2004,p.225.

[2] - وزارة التضامن والمرأة والأسرة والتنمية الاجتماعية، مؤسسات الرعاية الاجتماعية : تقرير عام، دجنبر 2013. ص 20.

ولقد شكل تقرير الخمسينية[3] الذي أنجز من طرف مجموعة من الباحثين المغاربة، تنبيها قويا للسلطات العمومية في مختلف مستوياتها إلى مكامن هذه الاختلالات. حيث نجد سعي المبادرة الوطنية للتنمية البشرية إلى وضع برامج لمحاربة الفقر والهشاشة استهدفت ثمان فئات من الساكنة، مثل الاهتمام بالأطفال بدون مأوى وأطفال الشوارع أول تلك البرامج. كما تم إعداد الخطة الوطنية للطفل ما بين 2006 / 2015 تحت شعار "من أجل مغرب جدير بأطفاله"، والتي تتضمن عددا من التدابير والإجراءات لحماية الطفل. حيث تم تأهيل هذه المؤسسات ببرامج نفسية، اجتماعية، تربوية، بيداغوجية وثقافية، منسجمة مع احتياجات الأطفال وحقوقهم[4]. إلا أنه بالرغم من كل هذه المجهودات، فإننا لا نملك إحصاءات دقيقة خاصة بالأطفال المتخلى عنهم، وإنما قد نجدهم ضمن مجموعة من المؤسسات التي يتم تصنيفها رسميا كالآتي:

المؤسسات حسب التخصص	العدد	%
مركز رعاية الأطفال المهملين	48	3.56
مراكز الطفولة في وضعية صعبة	43	3,19
المراكز الاجتماعية المتعددة الوظائف	22	1,63
مراكز محاربة التسول والتشرد	13	0,97
وحدات حماية الطفولة	04	0,30

جدول 1 : بعض مؤسسات الرعاية الاجتماعية حسب التخصص[5]

أما بخصوص حجم الظاهرة في المجتمع المغربي، فكما سبقت الإشارة، فإننا نفتقد لإحصائيات رسمية دقيقة، إلا أن ما تكشفه بعض فعاليات المجتمع المدني هو التصاعد الملموس في أعداد الأطفال المتخلى عنهم. ففي الدار البيضاء مثلا، ذكرت إحصاءات صادرة عن مستشفى مولاي رشيد، أنه من بين كل 5 ولادات نجد واحدة متخلى عنها. كما تشير النشرة الإحصائية السنوية للمندوبية السامية للتخطيط إلى وجود 5196 طفلا أقل من 18 سنة، بمؤسسات حماية الطفولة[6]. كما بينت بعض الإحصاءات المقدمة من طرف مكتب للدراسات Anners، بأنه يولد في كل يوم 153 طفل خارج إطار الزواج، ويتم التخلي عن 24 طفلا عند الولادة. كما تشير إلى أنه في سنة 2013، تم التخلي عن 5377 طفل وطفلة[7]. وتجدر الإشارة في هذا المجال، إلى ما تقوم به مختلف الهيئات الممثلة للمجتمع المدني، من مجهودات تسعى من خلالها إلى الإحاطة بالظاهرة بمختلف أبعادها، منطلقة من ظاهرة الأمهات العازبات، الحمل الغير الشرعي، الإجهاض، نظام الكفالة، والأطفال المتخلى عنهم إلخ. مع تبني المقاربات الحقوقية التي تطالب بحق الفئات المهمشة في العيش الكريم والمواطنة الكاملة.

[3] - قرنفل حسن، الفقر من الإحسان إلى التنمية البشرية، دار الأمان، الرباط، 2017، ص 230 / 232.
[4]- عزيز بنعيش و عبد الرزاق عريش، مديرية التشريع، ورقة حول المؤسسات المهتمة بالطفولة، ص.1.
[5]- وزارة التضامن والمرأة والأسرة والتنمية الاجتماعية، المرجع السابق، ص 24.
[6] - التجديد، 11 / 02 / 2009 .
[7] - "مأساة يلفها الصمت: ظاهرة التخلي عن الأطفال في المغرب"، ميديا 24 ، عدد 23 يونيو 2018

ولأجل فهم أعمق لخطورة ظاهرة الأطفال المتخلى عنهم، ننطلق من مفهوم "التخلي "، والذي يعود لغة إلى فعل "تخلى"، بمعنى ترك وابتعد ولم يعد يهتم به. كما قد يعني بالنسبة للشخص (الذي تم تركه) الابتعاد عن الآخر أو الفراق. مما يتسبب في خلق نوع من الألم نتيجة الشعور بالوحدة وفقدان الأمل في الحصول على هذا الآخر الذي ذهب بغير رجعة، مع فقدان الأمل في الحصول على حبه أو عنايته أو وجوده إلى جانب الشخص الذي يعاني من هذا "التخلي". وبناء على ما يخلفه التخلي من مشاعر أليمة، نجده يمثل أحد المواضيع التي أثارت اهتمام السيكولوجيين الذين درسوا الإحساس بالتخلي Le sentiment d'abandon. وهو شعور ناتج عن عدم تقبل الشخص "للتخلي"، مما يجعله يعيش هذه الوضعية باعتبارها ظلما مرتكبا في حقه. هذا الإحساس، الذي غالبا ما يكون مصاحبا بنوع من الشعور بالخيانة والغدر، وذلك بصرف النظر عن طبيعة هذا التخلي أو الكيفية التي تم بها. الشيء الذي غالبا ما تكون له انعكاسات واضحة على سلوك الشخص الذي يعاني من "التخلي"، فيميل إلى الانطواء والعزلة والانهيار والبكاء، أو غيرها من السلوكات التي تعبر عن مدى معاناته من القلق والعنف والضعف والعجز وعدم الإحساس بالأمن والأمان.

أما بالنسبة للمقاربة السوسيولوجية فلقد تم التعامل مع "التخلي" كظاهرة اجتماعية معقدة تم حصرها في ظاهرة "تخلي الآباء عن الأبناء". ومن بين أهم ما أثارته المقاربة السوسيولوجية، هو تنبيهها إلى مدى ارتباط تفاقم حجم ظاهرة تخلي الآباء عن الأبناء، بما يعتري ظروف عيش فئات واسعة من الأفراد من تحولات اقتصادية والاجتماعية في ظل إكراهات الحياة المعاصرة. فصحيح أن ظاهرة التخلي عن الأطفال نجدها عبرمختلف الثقافات والحقب التاريخية، إلا أنها غالبا ما كانت ترتبط بفترات الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية. ومن بين المؤشرات الدالة على أنها ظاهرة قديمة وشائعة، هو التشابه الحاصل بين الثقافات سواء على مستوى:

- تشابه أشكال التخلي: ويقصد بذلك تشابه الأماكن والكيفية التي يترك بها الأطفال (أبواب المؤسسات الدينية من مساجد أو كنائس أو ما يماثلها)
- تشابه الموقف من التخلي: لا نكاد نجد عبر التاريخ دولة تسمح للآباء بالتخلي عن أبنائهم، كما لم يكن يسمح بالإجهاض، أو بالعلاقات الغير الشرعية، أو بالأمهات العازبات.
- تشابه الجهات التي تتكلف بإيواء هؤلاء الأطفال المتخلى عنهم، والتي غالبا ما كانت تتمثل في المؤسسات الدينية والإحسانية والتي عرفت بالخيريات، أو دور الأيتام أو الملاجئ.

وبناء على ذلك يمثل التخلي عن الأطفال حسب هذه المقاربة، ظاهرة اجتماعية ذات أسباب سوسيواقتصادية متعددة يمكن تقسيمها إلى قسمين :

1 . أسباب ذات بعد اجتماعي/ قيمي: حيث كان التخلي ولا يزال، يرتبط بالنسبة للمجتمعات المسيحية والإسلامية بمنظومة ذات مرجعية أخلاقية دينية، ترفض كل علاقة جنسية خارج إطارها الشرعي ألا وهو الزواج. مما يفسر رفض كل طفل يولد خارج العلاقات الشرعية، ووصمه بأنه "طفل الحرام" أو "طفل الزنا" أو "اللقيط".

2 . أسباب ذات بعد سوسيواقتصادي: حيث يرتبط التخلي بأمراض اجتماعية ناتجة عن ظروف الهشاشة، وفي مقدمتها الفقر وانعدام العدالة الاجتماعية، الأزمات العائلية، العجز والإعاقة، الإدمان، العنف الأسري، ثم الأوضاع السيئة للنساء. مما يجعلنا أمام حلقة مفرغة تبين بأن الأطفال المتخلى عنهم والذين يعيشون في وضعية صعبة، هم أيضا نتاج آباء يعيشون في أوضاع صعبة.

أما بالنسبة للمقاربة السيكو اجتماعية، فإن لمفهوم "التخلي عن الأطفال" دلالات ومعاني متعددة، يمكن تقسيمها إلى :

- التخلي الفيزيولوجي: وهو التخلي عن الطفل وتركه لحاله مما يمكن أن يؤدي إلى موته.
- التخلي الطبي: ويعني حرمان الطفل من الرعاية الطبية اللازمة، خاصة إذا كان الطفل يعاني من مرض أو إعاقة، مما يمكن أن يتسبب في موته.
- التخلي التربوي: ويتمثل في عدم تولي تنشئة الطفل ومرافقته تربويا وتعليميا، مما يمكن أن يعرقل سيرورة اندماجه في المجتمع.
- التخلي العاطفي: ويقصد به إهمال الحاجيات العاطفية للطفل، مما يحرمه من تطور عاطفي وبناء شخصيته بكيفية متوازنة.

ويمثل التخلي الفيزيولوجي عن الطفل أخطر أنواع التخلي، باعتباره سلوكا إجراميا لا يختلف عن جريمة "القتل". وذلك بسبب ما يمكن أن ينتج عنه من مضاعفات يحتمل أن تؤدي إلى وفاة الطفل، لتوقف حياة هذا الأخير طيلة سنواته الأولى على المربي، الذي يتعين عليه تلبية مختلف حاجاته الأساسية من مأكل و مأوى ورعاية[8]. هذا فضلا عما يمكن أن ينتج عن التخلي كما يوضح بولبي John Bowlby، من اختلالات سيكولوجية عميقة بسبب غياب عناصر الطمأنينة القاعدية التي تتوقف على مدى حيوية الروابط الأولية خلال الطفولة المبكرة.

أما بخصوص الطريقة التي يتم بها التخلي، فإنها يمكن أن تتم بكيفيات متعددة نذكر من بينها:

1. التخلي المجهول المصدر Anonyme: ما يميز هذا النوع من التخلي، هو عدم الاهتمام بمصير الطفل، أو الانشغال عليه. مما يجعل من المجال الذي ترك فيه الطفل يلعب دورا حيويا في موته أو بقائه على قيد الحياة.

2 . التخلي مع ترك رسالة أو إشارة على الطفل Semi anonyme: مما يبرز نوع من الرغبة في تتبع أخبار الطفل أو إمكانية استرجاعه.

3 . التخلي مع معرفة هوية الآباء Non anonyme : والذي غالبا ما يرتبط بظروف فقر الآباء، أو مرضهما، أو عجزهما عن رعاية الطفل. كما يمكن أن يرتبط أيضا بفقدان الآباء أو أحدهما، أو بسبب حصول الطلاق أو الهجر أو عودة زواج أحد الآباء.

ويقسم بولبي أنماط الأسر التي يمكن أن تتخلى عن أبنائها، باستناده إلى معطى سيكولوجي حيوي مرتبط بالأسرة "كنسق" يسميه "بالنواة الأسرية"[9]. حيث يرى بأن أغلب الأسر التي تجرأ على القيام بسلوك التخلي، هي في غالبية الأحيان إن لم نقل كلها، أسر تعرف اختلالات عميقة على مستوى الروابط الأساسية التي تشكل "النواة الأسرية". والتي تعني سعي الآباء نحو الحفاظ على تماسك الأسرة وحمايتها بالقدر الضروري من التضحية والالتزام، حيث يتولى الآباء تحقيق الذات الفردية من خلال خدمة الكيان الأسري والرغبة في تطوير نمائه. وبناء على ذلك، يقسم بولبي هذه الأسر إلى ثلاثة أصناف هي كالآتي:

- أسر مفتقدة للروابط والعلاقات العاطفية، حيث النواة الأسرية لم تؤسس أبدا.
- أسر تتوفر على النواة الأسرية، لكنها لا تؤدي دورها ووظيفتها بشكل فعال
- أسر تعاني من تفكك النواة الأسرية، لاعتبارات اجتماعية / اقتصادية

[8] - M.José Rubio y Silvina Monteros, La exclucion social: Teoria y practica de la intervencion, Editorial CCS, Madrid, 2004,p.229.

[9] - John Bowlby, La separacion, Paidos, Psicologia profunda, Madrid, 2010, p.23.

وبناء على ذلك، تؤكد مختلف الدراسات والأبحاث السيكولوجية، أن "التخلي" بجميع أشكاله هو أحد أبرز أنواع العنف التي يمكن أن يتعرض لها الطفل، وذلك بدرجة يبقى من الصعب فيها التمييز بين طفل معنف وطفل في وضعية صعبة بسبب "التخلي". على اعتبار أن الطفل المتخلى عنه يصبح في وضعية صعبة منذ لحظة التخلي، كما أنه غالبا ما يتحمل أعباء هذه الوضعية طيلة حياته سواء على المستوى المادي أو النفسي. لما لوضع التخلي من انعكاسات سلبية على المدى القريب أو البعيد، وعلى كل من الحاضر والمستقبل، مخلفا في غالبية الأحيان انعكاسات عميقة على مختلف الجوانب الفيزيولوجية، العقلية، الانفعالية، والاجتماعية ... بل على الكيفية التي يعمل بها العقل بشكل عام. وكما يشير الأستاذ الغالي أحرشاو، لم يعد هناك مجال لنظرية حول النمو، تتحدث عن الطفل المعزول. فلقد أصبح من المستحيل اليوم، تحديد الكيفية التي يكتسب بها الطفل القواعد والأنظمة بشكل متوازن، بدون التخصيص الدقيق لأشكال التفاعل التي تؤطرها وتندرج ضمنها[10].

وتشير بعض الدراسات، أن الانعكاسات السلبية لوضعية التخلي، غالبا ما تبدأ في التأثير على حياة الطفل قبل حصول فعل التخلي. على اعتبار أن الأم التي تعيش في وضعية صعبة (المطلقة أو الأم العازبة أو المعنفة...) أو التي تعاني من مشاكل يمكن أن تدفعها إلى التخلي، غالبا ما يكون حملها مصحوبا باضطرابات متعددة قبل الولادة. مما يدفعها في كثير من الأحيان، إلى كراهية هذا الطفل والرغبة في التخلص منه بوسائل متعددة، وإن لم تنجح هذه الوسائل فهي تتخلى عنه بعد الولادة. وبناء على ذلك فإن الأم التي تتخلى عن طفلها هي في غالبية الأحيان، أم في وضعية نفسية وصحية صعبة ومتردية، خاصة لما يرتبط الأمر بصغر سن الأم، أوضاع الفقر، وظروف الإقصاء الاجتماعي بسبب الحمل الغير الشرعي...الخ.

الخصائص النفسية لنزلاء "دار الأطفال":

في ظل هذه المعطيات النظرية، حاولنا الوقوف على بعض الخاصيات السيكولوجية لمجموعة من الأطفال الذكور المتخلى عنهم بمؤسسة "دار الأطفال"، والذين تتراوح أعمارهم ما بين 11 و 16 سنة. وذلك باستنادنا إلى مضامين مجموعة من المقابلات الفردية والجماعية Focus Groupes، التي قمنا بإنجازها مع عدد منهم لهذا الغرض. وبالنظر إلى خصوصية وضعية هؤلاء الأطفال، كأطفال تم التخلي عنهم، عمدنا إلى الاهتمام بالهوية والإحساس بالانتماء، إيمانا منا بأن هوية الشخص هي أكبر من كونها مجرد لائحة لمرجعيات خارجية أو موضوعية، بقدر ما هي إدراكات وتقييمات للذات استنادا إلى مرجعيات عاطفية عميقة شعورية ولاشعورية. ومن هذه الزاوية، سوف يتم النظر إلى الهوية باعتبارها حصيلة مجموعة من الأنساق والعلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد تقييمه لذاته، ويضع على ضوئها نظاما لتشكيل هويته وتعيينه لذاته داخل وسطه الاجتماعي[11]. وذلك باستنادنا إلى تعريف Zavalloni للهوية باعتبارها بنية منظمة من التمثلات المبلورة حول الذات وحول الآخرين، وإنشاء اجتماعيا للواقع حيث العلاقة مع الآخر هي أولا وقبل كل شيء "وعيا" بهذه العلاقة مع ربطها بالوعي بالانتماء[12]. وفي سياق هذا المنحى العام لمفهوم الهوية، حاولنا الوقوف على بعض السيرورات المعرفية والعاطفية من خلال:

- الشعور بالانتماء
- تقدير الذات
- التطلع نحو المستقبل

[10]- أحرشاو، الغالي. الطفل بين الأسرة والمدرسة، منشورات علوم التربية، 19، الطبعة الأولى، ص 75.

[11]- خلود السباعي، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، جداول، لبنان، 2011، ص257.

[12] - Gustave Nicolas, Fischer, Les concepts fondamentaux de la psychologie sociale, DUNOD, Paris, 1978,p.168.

➢ **الشعور بالانتماء:**

لعل ما يميز الكائن البشري هو حاجته الملحة إلى الأسرة مقارنة بغيره من الكائنات الحية الأخرى. لما لهذه الأخيرة من دور فعال في ضمان استمرارية حياته أولا، ثم تنشئته واحتضانه ومنحه الإحساس بالانتماء، مما يساعد على نموه بشكل متوازن سواء على المستوى النفسي والاجتماعي. فمن خلال الأسرة وفي ظل ما يكتنفها من علاقات عاطفية مكثفة يتمكن الطفل من بلورة هويته، فيعرف من هو، كما يتمكن من تقييم ذاته ضمن الجماعة التي ينتمي إليها. على اعتبار أن كل أسرة إلا وتعكس ثقافة ولغة وتاريخا ...كما أنها تحيل على جماعات ذات قيم ومعايير ومرجعيات محددة.

إلا أن افتقاد هؤلاء الأطفال للأسرة، كجماعة أولية تمكن من تعيين الذات ومنح الإحساس بالانتماء، يجعل أغلب هؤلاء الأطفال إن لم نقل جلهم يضطربون في جوابهم عن السؤال "من أنا ؟". فلقد لاحظنا لدى أغلبهم نوعا من الصعوبة في حديثهم عن بيوغرافيتهم وعن ماضيهم، مما يجعل حديثهم على هذا المستوى مقتضبا، صعبا، تتخلله فترات صمت طويلة، كثيرا ما تكون مؤلمة تنهمر فيها الدموع حتى بالنسبة لأكثر هؤلاء الأطفال صرامة وقوة. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاضطراب لا يقف عند حدود كيفية مواجهتهم للسؤال، وإنما ينعكس بشكل واضح أيضا على مضمون خطابهم عن ذواتهم، تاريخهم وهوياتهم. فأغلب أحاديث هؤلاء الأطفال عن طفولتهم يشوبها الغموض والخلط والتناقض، مما يفضي إلى رغبتهم في إنهاء الحديث أو التهرب من الجواب باعتماد أساليب متعددة من بينها السكوت. ومن بين الأمثلة الدالة على غموض الخطاب ما يلي:

1. يتحدث كل هؤلاء الأطفال بدون استثناء عن آباءهم، على أنهم من عداد المتوفين فيذكرونهم تحت عنوان "آباؤنا رحمة الله عليهم ". كما يتم استحضارهم والحديث عنهم بنوع من الاحترام والتقدير، كما يحصل عادة في الحديث عن الموتى، الذين يتعين ذكرهم بخير استنادا إلى المرجعية الدينية التي تدعوا إلى ذكر الأموات بالخير. مما يطبع حديث هؤلاء عن آبائهم بكثير من الاقتضاب دون السعي إلى محاكمتهم أو استحضار أخطائهم أو لومهم...الخ.

إلا أن التأكيد على وفاة الآباء في مقابل وعيهم بزيف ما يقولونه، غالبا ما يفضي إلى وقوعهم في نوع من الغموض والتناقض نتيجة خلطهم ما بين الواقع والخيال. مما يزكي إحساسهم العميق بالألم حيال كل المواضيع المتعلقة بهذا المجال[13]. الشيء الذي نستنتج من خلاله مدى صعوبة مواجهة هؤلاء الأطفال لحقيقة أصلهم كأطفال متخلى عنهم، وسعيهم بكيفية شعورية أو لا شعورية إلى تمويه وإخفاء حقيقة أصولهم رغم شيوعها بين كل من يتعايش معهم من نزلاء أو مشرفين، سواء تعلق الأمر بداخل المؤسسة أو خارجها. مما يمكن أن يطلعنا على مدى التناقض والغموض والإحباط الذي يتخبط فيه هؤلاء الأطفال، وذلك من خلال سعيهم إلى استثمار عدد من الميكانيزمات العاطفية والمعرفية، حيال موضوع تهدر فيه كل المجهودات من الأساس. الشيء الذي يمكن أن نستشف منه أيضا، مدى حاجة كل طفل من هؤلاء إلى معلومات مهما كانت بسيطة عن أصلهم، تمكنهم من ترميم الشرخ وبناء تاريخ يشهد بوجود "ارتباط" ما، يجعل منه امتدادا واستمرارية لآباء، وأسرة وإسم عائلي.

2 . كما يعود هذا الغموض أيضا إلى صعوبة تمثل هؤلاء الأطفال لانتمائهم إلى "مؤسسة" بدل "أسرة"، وذلك على خلاف سائر الأطفال من جهة، وعلى خلاف السيرورة الطبيعية للمجتمع من جهة ثانية. مما يسقط الطفل في دوامة من التساؤلات التي لا يجني من ورائها غير الغموض الذي يبقى مشوشا على ذهنه، مستعصيا على فهمه ومداركه العقلية. وتمثل المؤسسة كمجال محايد، بما تضمه من مربيات يعملن وفقا لتوقيت رسمي يتناوبون فيه على الأطفال بشكل غير منتظم، وبما تتضمنه من فضاءات ينتقل الطفل بين غرفها بشكل مقنن وفقا لمراحل عمرية معينة، معطيات تساهم بشكل كبير في هذا التشويش

[13] - Claude Miollan, Abandon – acculturation, Intégration et exclusion : quelle société pour le 21° siècle,Publication de la Faculté des Lettres – Rabat, 2007, p.128.

على ذهنية الطفل ومدركاته العقلية، وذلك خاصة في السنوات الخمس الأولى من عمره. الشي الذي يبقى من المحتمل أن يؤدي إلى ما سماه الدكتور مصطفى حجازي "بالإعاقة الفطرية للتفاعل، بسبب عدم التجاوب والإثارة من قبل الراشدين في غياب العلاقة الدائمة الحامية والراعية والمطمئنة"[14].

3 . إن معرفة هؤلاء الأطفال بأنهم أطفال "لاأحد"، أطفال آتون من "لاشيء"، أطفال "بدون تاريخ" أو قصص شخصية أو عائلية، لا جذور لهم في المكان والزمان، كثيرا ما ينعكس على نفسياتهم مخلفا إحساسا عميقا بالفراغ. الشيء الذي يفسر مدى عجزهم في كثير من الحالات عن تعيينهم لصفاتهم الشخصية، وصعوبة حديثهم عن الذات بضمير المتكلم "أنا"، بشكل متناغم، أووفقا لمرجعيات منطقية وواقعية. بحيث نلمس من طريقتهم في التعبير وكيفية حكيهم عن ذواتهم وخبراتهم، مدى الصعوبات التي يواجهونها على مستوى التواصل والفهم والتعبير. فيعمدون كثيرا إلى تكرار نفس الجمل والكلمات، مع وجود نوع من التردد والارتباك المصاحب بفقر ملحوظ على مستوى استعمال "اللغة الداخلية المعبرة" عن المشاعر. فأغلب هؤلاء إن لم اقل كلهم، يعانون من صعوبة كبيرة في الحديث عن مشاعرهم، وصفها وتوضيحها، وذلك في مقابل تمكنهم من اللغة "السجالية" أو الحوارية الفضفاضة حيث يتم تكرار الكلمات وإعادتها إلى حد الاجترار أحيانا. ويشير د. المصطفى حدية إلى هذه العلاقة المركبة ما بين اللغة والكلام والتواصل، منبها إلى مدى "ارتباط الكلام بطبيعة التشكيلة الهوياتية للطفل. ومن هنا أشكال الكلام المتناقضة حيث "الكلام "الضيق" أو "الفقير" في عباراته ومضمونه، مليء بالإشارات والإيماءات والحركات، بحيث يصعب التعامل معه موضوعيا أثناء تحليل مضمونه حسب ما هو سائد في هذا السياق. ...وذلك في مقابل الكلام "المقنن" المنظم الذي نتبين منه نوعا من التعابير المميزة للذات المتكلمة ... مما يدل على امتلاك هامش من الحرية الفردية الدالة على استثمار خاص ونافع للغة كإنجاز كلامي يعبر الفرد من خلاله عما يخالجه كهوية نفسية اجتماعية متميزة"[15].

4 . غياب صورة الأم / الأب، وصعوبة تمثلهما في الذهن، وغياب ما يمكن أن يمنح الطفل فكرة عن آبائه أو إمكانية التماهي معهم كمرجعية بيولوجية، من قبيل "أنا اشبه أبي في كذا، أو أنا اختلف عنه في كذا". حيث يمثل غياب هذه السيرورات المعرفية ذات البعد التفاعلي مع الآباء أو المحيط العائلي في الحالات الطبيعية، إحدى المعطيات التي تغذي هذا الإحساس بالغموض الذي يلف ذهنهم ويشوش عليه. فأغلب هؤلاء الأطفال كما سبقت الإشارة، تنقصهم إمكانية معرفة "قصصهم الشخصية"، فلا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم، ولا يملكون من يمكن أن يحكي لهم قصتهم. وتؤكد جل الدراسات على أهمية حضور الآخر الذي يحكي للطفل قصة حياته، فيوضح له أصوله العائلية، خاصياته، وكذا نوع السمات التي كانت تميزه لما كان صغيرا، إلى غير ذلك من المعطيات التي تسمح له بمعرفته لذاته وبلورته لهويته. ويشير G.H.Mead إلى أهمية حضور الآخر كأحد الميكانيزمات المكونة للهوية، من خلال ما يمنحه من إمكانيات متعددة للتقمص، تصبح فيها المعلومات المحصل عليها بمثابة "ملكية" يتولى الفرد استدماجها لبلورة شخصيته [16].

ومن بين الملاحظات المثيرة على هذا المستوى المتعلق بالهوية وتعيين الانتماء، التشابه الحاصل بين مختلف إجابات هؤلاء الأطفال بخصوص حكيهم عن ماضيهم وتعبيرهم عن شعورهم بالانتماء، وذلك إلى حد التطابق أحيانا. مما يستنتج من خلاله، مدى اهتمامهم بهذا الموضوع وطرحه ومناقشته فيما بينهم، لأجل مساعدة بعضهم البعض على تجاوزه والخروج من متاهاته المؤلمة بأقل الأضرار. وبناء على ذلك، نلاحظ مدى إجماعهم على أجوبة جاهزة وعامة، يتم اللجوء إليها أمام كل استفسار عن الانتماء. بل يلاحظ أثناء المقابلة الجماعية، أنه كثيرا ما يتولى أحدهم مهمة تقديم الجواب نيابة عن المجموعة أو باسمها، دون

---

[14] - مصطفى حجازي، الصحة النفسية، منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، لبنان، بيروت،2006، ص173.

[15] - حدية المصطفى، دراسات حول الطفولة والشباب : مقاربة نفسية اجتماعي، مطابع الرباط نت، الطبعة الثانية، 2013، ص. 101,

[16] - Hélène Cauchat, « Du fondement social de l'identité », De l'identité du sujet au lien social, P.U.F, Paris, 1999, p.12.

وجود أي اعتراض من طرف الآخرين. مما يدل على وجود نوع من التواطؤ أو الاتفاق المسبق على أجوبة معينة تجاه هذا النوع من المواضيع، لكي يتم إغلاقها وإنهاء الحديث فيها مع المحاور بأسرع وقت ممكن.

فإذا كان بإمكان الطفل الاحتماء في الإجابات الموحدة بخصوص الانتماء الاجتماعي، فإنه غالبا ما يعجز عن تدبير هذا الدعم السيكولوجي لما يتعلق الأمر بتعيين هويته الذاتية من خلال اسمه. إذ غالبا ما يجد هؤلاء الأطفال صعوبة في التعبير والتذكر، عند إجابتهم عن الأسئلة المتعلقة "بالإسم"، من قبيل كيف تم اختيار اسمه؟ ومن قام بذلك؟ والمرحلة التي تمت فيها تسميته؟ الخ. فما يستنتج من إجابات بعضهم، هو عيشهم لفترة غير قصيرة ضمن المؤسسة الأولى بدون أسماء شخصية، وبأن معرفتهم بأسمائهم وإخبارهم بها، غالبا ما ترتبط في أذهانهم ببلوغهم سن مغادرتهم لهذه المؤسسة الإيوائية الأولى (الحضانة). فيحكي بعضهم (بحرقة ومرارة والدموع تنهمر بغزارة من عينيه) كيف قامت المربية بتلقينه لاسمه، يوم مغادرته للمؤسسة الأولى (الحضانة) وتأكيدها على ضرورة تذكره لاسمه كمعلومة أساسية عليه ألا ينساها بعد ذلك.

ثم إلى جانب الآلام الدفينة المتعلقة بالاسم كمحدد للشخصية، ينضاف الانتماء للخيرية "أولاد الخيرية " كمحدد آخر لهوية هؤلاء الأطفال / المراهقين، والذي لا يقل إيلاما وعنفا. وذلك بسبب ما يثيره هذا الانتماء إلى المؤسسة الإيوائية في نفوسهم من مشاعر الألم والإحباط والخجل، يجعل العديد منهم يرفض التصريح به "كانتماء" كلما سمحت الفرصة بذلك. إذ بالإضافة إلى ما يحيل عليه لقب "ولاد الخيرية" من معاني قدحية تربطهم بماضيهم كأطفال مرفوضين على المستوى القيمي، تنضاف المعاني القدحية الآتية من الحاضر الذي يشهد بصعوبة تأقلمهم وارتفاع نسبة الانحراف والهشاشة بينهم. حيث يعترف أغلبهم بمدى ارتفاع نسبة الانحراف بين أولاد الخيرية أو نزلاء دار الأطفال، بسبب ما يعانونه من حرمان على مستويات متعددة. وذلك بالرغم ما تبذله المؤسسة من مجهودات على هذا المستوى لتلبية حاجيات نزلائها. مما أصبحت معه كل السلوكات الانحرافية التي تحدث بالحي، تنسب إلى أولاد الخيرية. فكل من يضبط متلبسا في حادثة سرقة، أو قضية ضرب أو جرح أو تحايل من نوع ما، يدعي بأنه "ابن الخيرية". الشيء الذي ساهم في بلورة نموذج منمط سلبي عن "أولاد الخيرية"، كما تدفع بالآخرين إلى تجنبهم وعدم الرغبة في التعامل معهم.

ومن بين الأسباب التي تفسر مدى انتشار هذه السلوكات الانحرافية لدى بعض نزلاء الخيرية، معاناتهم من الحرمان على المستوى المادي وفي مقدمته افتقادهم "لمصروف الجيب". وذلك في ظل مجتمع لا تكف فيه الشوارع والأسواق ووسائل الإعلام، عن ترويج وعرض عدد كبير من المنتوجات التي يتوق إليها الأطفال والمراهقون. والتي لا تكف عن تأجيج رغبتهم في الاستهلاك[17] سواء على مستوى اللباس أو الأكل أو الترفيه أو الرياضة الخ. ويبقى الأطفال المتخلى عنهم على وجه الخصوص، الفئات الأكثر حرمانا من "مصروف الجيب"، بسبب افتقادهم لأي مصدر يمكن أن يمنحهم هذا المصروف. وذلك خلافا لباقي النزلاء الآخرين (الذين يوجدون في المؤسسة بدافع اليتم أو الفقر أو التفكك الأسري)، والذين يتمكنون في فترات زيارتهم لآبائهم أو أقاربهم، من الحصول على بعض الدراهم. في حين يظل الأطفال المتخلى عنهم، الفئة الوحيدة التي لا تملك أي مخرج للحصول على المال غير الطرق الغير المشروعة. ومن بين الممارسات التي يلجأ إليها الأطفال للحصول على المال:

- بيع ملابسهم التي تمنحها لهم المؤسسة. فكلما احتاج الطفل إلى المال باع ملابسه إلى درجة يصبح فيها بعضهم في حالة متردية من حيث اللباس (بالرغم من كل الجهود التي تبذلها المؤسسة على هذا المستوى).

[17] - Haddiya, Elmostafa. Jeunesse, éducation et changement social, Ed, Rabat Net, Rabat, Maroc, 2014, P.54.

- اللجوء إلى السرقة، فيسرقون ملابس وممتلكات بعضهم البعض من أجل بيعها حتى يتمكنوا من شراء ما تصبوا إليه أنفسهم.

ومن بين الاحتياجات الملحة التي أثارها هؤلاء الأطفال، والتي تتطلب توفرهم على مصروف خاص مهما كان ضئيلا، هو حاجتهم إلى التنقل، وذلك علما بأن المؤسسة لا تتكلف بنقلهم إلا لما يتعلق الأمر بأنشطة تابعة لها. ويمثل المراهقون على وجه الخصوص الفئات الأكثر معاناة من مشكل النقل، بسبب حاجتهم إلى اكتشاف المحيط، والإحساس بالحرية والابتعاد عن حي المؤسسة ومحيطها. الشيء الذي يدفع ببعضهم إلى استعمال وسائل النقل العمومية دون شراء التذكرة، مما يدخل الطفل/ المراهق في غمار تجربة متعددة العواقب، لتوقفها على مدى شطارته في اعتماد أساليب التحايل والمراوغة التي قد تنتهي بتسامح مراقب الحافلة، أو بتدخل أحد المحسنين الذي يتولى دفع ثمن التذكرة. كما يمكن أن تنتهي بطرده بعد إهانته وسبه وضربه في بعض الأحيان.

وفي نفس السياق المرتبط بالحاجة إلى المصروف الشخصي، أثار هؤلاء الأطفال شغفهم بمتابعة المباريات الرياضية على القنوات التلفزية في المقاهي، نظرا لافتقار المؤسسة لهذه القنوات (وذلك في فترة إجراء البحث الميداني). مما يضطر معه هؤلاء إلى التجمهر على شكل حشود أمام أبواب ومنافذ المقاهي المجاورة بشكل مهين، يؤدي في غالبية الأحيان إلى استياء الزبناء وأصحاب المقاهي. وفي ظل هذا الإحساس بالحرمان والرغبة الشديدة في الحصول على المال، يلاحظ على أنه كلما حصل الطفل على المال في غياب التوجيه والمراقبة الكافية، كلما اشتدت حاجته إليه، ومال بشكل ملحوظ نحو تبني السلوكات الانحرافية وفي مقدمتها التعاطي للمخدرات. الشيء الذي يساهم إلى حد بعيد في ترسيخ النماذج المنمطة السلبية بخصوص "أولاد الخيرية" وتدعيمها. مما نصبح معه أمام حلقة مفرغة عمادها التصرفات الانحرافية اليومية لنزلاء دار الأطفال من جهة، والنماذج المنمطة القدحية المبلورة حولهم من جهة ثانية.

في ظل هذه الظروف التي لا تصون كرامة الطفل، غالبا ما يتم احتقار الهوية الشخصية وتقييم الذات بكيفية سلبية، مما يدفع الطفل إلى تبني كثير من السلوكات الانحرافية التي ينقلها إلى المؤسسة التي يعيش فيها والمدرسة والشارع لكي تصبح جزء من شخصيته. فيفقد الإحساس بالعيب والحشومة والحفاظ على الكرامة، مستسلما للسلوكات الانحرافية التي تتحول بفعل ترسخها إلى ممارسات اعتيادية ضرورية يدافع بها عن ذاته ويدبر بها معيشة اليومي. وتشير بعض الدراسات المقارنة التي أجراها كل من Rubin / Chen / Hymel بين الأطفال العدوانيين وغيرهم، بأن ما يميز العدوانيون هو ثقتهم في العدوان كوسيلة ناجحة وأساسية في توجيه السلوك. حيث يمثل العدوان كسلوك واقعي، معطى إجرائي يؤكد لهؤلاء وبكيفية عملية، مدى قدرتهم على السيطرة والتغلب على غيرهم من الأطفال. مما يرسخ اعتقادهم بأنه من شأن العدوان أن يرفع من مستوى تقدير الذات لديهم[18].

ولعل ما يمكن استنتاجه على هذا المستوى، هو أن انتماء هؤلاء المراهقين في ظل الظروف الراهنة للخيرية أو دار الأطفال، لا يعوض الطفل عن إحساسه بالحرمان، ولا يرمم الشرخ الذي يعيشه على مستوى بنائه لهويته وتعريفه بذاته، بل إن العكس هو الصحيح. حيث يمثل الانتماء للخيرية كمجال، مصدر معاناة إضافية، تساهم في تعميق أزمته باعتباره طفلا متخلى عنه، كما أنهى تتولى فضح هذا الواقع الحميمي والتشهير به. مما يدفع بنسبة هامة منهم إلى إخفاء هذا الانتماء والخجل منه لخوفهم من

[18]- السباعي خلود، المرأة والعنف، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2016، ص، 40.

التنميط والأحكام المسبقة التي يمكن أن تحرمهم من بعض الصداقات بوجه عام، والعلاقات مع الفتيات بوجه خاص.

تقدير الذات:

يمثل Cooley أحد أبرز من اهتم بمفهوم الذات، معرفا إياها "بأنها ما يشير إليه الكلام الدارج بضمائر المتكلم كأنا الفاعلة، وياء المتكلم، ويا الملكية ونفسي"[19]. أما تقدير الذات فيعني إدراك الفرد لذاته وتقييمها ضمن سيرورة تفاعله مع محيطه وعلاقته الأولية بآبائه. إنه عبارة عن شعور عام بقيمة الذات يمكن أن يسير في اتجاهات قد تكون إيجابية أو سلبية. وبالنظر إلى ارتباط مفهوم الذات بالعلاقات الأولية مع الآباء، فإنه يبقى من المحتمل جدا بأن يحمل أغلب الأطفال المتخلى عنهم صورا سلبية وتقديرا منخفضا للذات لافتقادهم للأسرة التي يمكنها أن توجههم وتحميهم. حيث تؤكد مختلف الدراسات السيكولوجية، بأن بلورة الطفل للتقدير الإيجابي لذاته، يتوقف بشكل كبير على مدى تقمصه لشخصية الآباء وطبيعة اتجاهاتهم وأساليبهم التنشئوية.

بالنظر إلى افتقاد هؤلاء الأطفال للأسرة، حاولنا الوقوف على مؤشر "تقدير الذات" من خلال علاقتهم بالمدرسة. حيث تمثل المدرسة كمجال للتعلم، إحدى المرجعيات التي تسمح للطفل بإبراز قدراته وفي مقدمتها قدرته على التحصيل والتميز. كما يمكن أن تساعده استنادا إلى ذلك على بلورة تقييم إيجابي لذاته بناء على مجهوداته وإمكانياته الشخصية. هذا فضلا عما يمكن أن تمنحه المدرسة كمجال، من إمكانيات للتعلم والنجاح يمكن أن تساهم في خلق تعلمات ونجاحات جديدة تابعة. إلا أن حواراتنا مع هؤلاء الأطفال، كانت بمثابة دحض لكل هذه الفرضيات السابقة. وذلك لأنه من بين أبرز النتائج التي حصلنا عليها بخصوص مواقف هؤلاء الأطفال من المدرسة، هو كراهيتهم ورفضهم لهذه المؤسسة. بل يمكننا القول بأن ما يميز المدرسة، هو كونها مجال للإحباط وتذكية الشعور بالفشل، وذلك بالنسبة لعدد كبير منهم إن لم نقل كلهم . هذا الإحباط الذي يعود إلى مجموعة من الأسباب، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي :

- ✓ **أولا**: تصنيفهم داخل المدرسة بشكل عام، وداخل الأقسام على أنهم "أولاد الخيرية". الشيء الذي يساهم في تعميق إحساسهم بالاختلاف والاقصاء من جهة، ويزكي الصور النمطية السلبية المسندة إليهم.
- ✓ **ثانيا**: إحساسهم العميق بأن المدرسة هي مجرد فضاء "كلامي"، "مثالي"، فضاء مليء بالشعارات والمعاني المفرغة من مضامينها. وذلك بسبب الهوة الفاصلة ما بين مضامين المقررات الدراسية التي تنادي بالمواطنة، التضامن، العدالة... وبين الواقع اليومي لهؤلاء الأطفال. فتزداد الهوة اتساعا بين الكلمة والفعل، مما يساهم في تعميق الشعور بالإحباط لديهم، ومن ثمة افتقاد نسبة هامة منهم للالتزام الأخلاقي والاجتماعي في أغلب معانيه.
- ✓ **ثالثا**: تقلص وندرة خبرات النجاح المدرسي بين جماعات الأطفال الذين ينتمون إلى "الخيريات" أو دور الأطفال بشكل عام. الشيء الذي يقلص من الرغبة في الاجتهاد، ويقضي على كل إمكانية للتنافس وبذل المجهود. مما حيث يجعل من الاهتمام بالتعلم والنجاح المدرسي مجرد مضيعة للوقت، واستثمار في "سراب"، لا يمكن اعتماده لشق الطريق نحو المستقبل. (وذلك على خلاف نظرتهم للحقل الرياضي، الذي يرغبون في الانتماء إليه والاجتهاد فيه)
- ✓ **رابعا**: تراكم خبرات الفشل الدراسي: وذلك نتيجة الرسوب المتكرر لأغلبهم، وعجزهم عن تعلم بعض المواد (الرياضيات، الفيزياء، اللغات...) وتحقيق النجاح الذي يسمح بالانتقال بين

[19] - حدية المصطفى، قضايا في علم النفس الاجتماعي، منشورات المجلة المغربية لعلم النفس، الطبعة الأولى، الرباط، 2004، ص، 93.

الفصول الدراسية بكل سلاسة. مما يزكي الإحباط ويجعل الطفل عاجزا عن التخطيط لمشروع يحقق به رغباته انطلاقا من المدرسة أو التمدرس.

- ✓ **خامسا**: اقتناع أغلب هؤلاء الأطفال إن لم نقل كلهم بمدى ارتباط النجاح الدراسي بمعطيين أساسين هما: أهمية وجود الآباء وحضورهم اليومي كمراقبين لأبنائهم ومهتمين بتمدرسهم من جهة، ثم ما يتطلبه النجاح الدراسي من إمكانيات مادية في مقدمتها دروس الدعم وتعلم اللغات من جهة ثانية. (وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى مدى تعبير جل هؤلاء الأطفال عن رغبتهم القوية في تعلم اللغة الفرنسية والتمكن من استعمالها).

وبناء على هذه المعطيات، يمكننا القول، بأن وجود المدرسة كمؤسسة تربوية وتعليمية، لا تعمل سوى على تذكية الفشل وتغذية ما يصطلح على تسميته "بالعجز المتعلم". الشيء الذي تتحول فيه المدرسة إلى فضاء يؤدي إلى "اقتناع" الطفل بتدني قدراته وعجزه عن التعلم والاندماج. فيشعر بالغربة داخل المدرسة، مما يفقده الحوافز نحو بذل المجهود أو التضحية ببعض رغباته الحاضرة على أمل تحقيق طموحات مستقبلية. فينعكس ذلك على مختلف سلوكاته داخل القسم وخارجه. ومن بين السمات المميزة لأغلب التلاميذ المنتمين "لدار الأطفال"، حسب بعض المدرسين ما يلي:

- تقلص حجم اهتمامهم بالدراسة وحوافزهم نحو التعلم
- ضعف القدرة على التركيز.
- الميل إلى كثرة الحركة والتركيز على التواصل الغير اللغوي.
- الاستعمال المكثف للحركات الجسدية والإشارات في التواصل وردود الفعل العفوية التلقائية.
- سرعة فقدان لغة الحوار وتعويضها بالاشتباك بالأيادي، مما يفسر ميلهم إلى العدوان.
- تميزهم بالتطرف الانفعالي (إما يفرحون أو يغضبون لأتفه الأسباب)
- ارتفاع نسبة الهدر المدرسي بينهم.
- تخلف مستوياتهم الدراسية مقارنة بسنهم.
- الهروب من الواقع واعتماد الخيال.
- الصمت أو العجز عن إظهار الإمكانات بسبب نقص الثقة في الذات.
- ضعف التنافسية.
- التعاطي للمخدرات والكحول.
- التمركز حول الذات وصعوبة خلق العلاقات الطويلة المدى.

وتجدر الإشارة إلى مدى تشابه هذه السمات المرتبطة بالمدرسة والإقبال على التعلم بين سائر الأطفال المتخلى عنهم، بسبب معاناتهم مما يسمى "بعصاب التخلي". هذا العصاب الذي يمثل بالنسبة لمدرسة التحليل النفسي، سمة سيكولوجية مميزة للأطفال المتخلى عنهم. لما يخلفه الإحساس بالتخلي من انعكاسات عميقة تجعل الطفل عاجزا عن تجاوز عقدة أوديب. مما يجعل الطفل في حالة قلق مستمر يهدد إحساسه بالأمن والأمان، الذي لا يمكن أن يتشكل إلا من خلال العلاقة أم / رضيع [20]. الشيء الذي يفسر سبب ميل هؤلاء الأطفال إلى تبني الهروب كسلوك دفاعي ينم عن لوم للذات وتأنيبها من جهة، ورغبة دفينة في تعويض "التوقف" على الأم بأشكال أخرى من "التوقف". كما يدفع بهم إلى نهج بعض السلوكات التي تتعارض وما يتطلبه التعلم من تركيز أو انضباط.

[20] - John Bowlby,Op.Cit, p.

التطلع نحو المستقبل:

لعل أول ما يثير الانتباه لدى الأطفال المتخلى عنهم، نظرتهم لكل من يزور المؤسسة بعين الأمل على أنه جاء يبحث عن طفل للتبني. ويصرح جل الأطفال إن لم نقل كلهم مدى تشوقهم لوضع التبني، الذي يبقى في نظرهم أفضل وأرحم من المكوث في المؤسسة. ومن بين الملاحظات التي استرعت انتباهنا على هذا المستوى، نظرتهم المثالية للأسرة كمؤسسة تجمع الآباء بالأبناء في ظل علاقات عاطفية جميلة مثالية، تقوم على أساس الحب والحماية والعناية والاهتمام. مما يطلعنا على ما تتضمنه تمثلات هؤلاء الأطفال "للأسرة " من تحريفات إدراكية لا شعورية، تجعلهم غير مدركين لما تعيشه بعض الأسر من مشاكل وصعوبات تنعكس بشكل سلبي على وضعية أطفالها. فبالرغم من معايشتهم لأطفال يتواجدون معهم في نفس المؤسسة بسبب المشاكل الأسرية، فإن ذلك لا يغير من تمثلهم الإيجابي للأسرة كمؤسسة مثالية تعمل على حماية أطفالها ورعايتهم. مما يبرز مدى تطلعهم وإدراكهم لأهمية وجود الأسرة كرمز للحماية وموطن للشعور بالأمن والأمان، في ظل ما يخالج نفوسهم المتعبة من إحساس عميق بالغموض والقلق من المستقبل المجهول.

ويمثل انتقال الأطفال من مؤسسة الرعاية الاجتماعية الأولى إلى المؤسسة الثانية، وانتقالهم من فترة الطفولة نحو المراهقة مع استمرار انتمائهم إلى المؤسسة، صدمة عنيفة وإحباطا للآمال بخصوص التبني. وكلما تعلق الأمر بالذكور كلما تقلص هذا الأمل بشكل ملحوظ وترسخ الاقتناع بانتمائهم إلى هذه المؤسسة الإيوائية طيلة حياتهم. الشيء يرسخ في أذهان هؤلاء المراهقين، ضرورة اعتمادهم على أنفسهم وتعلم تدبيرهم لأمورهم، وتقلص أملهم في الحصول على السند أو المساعدة. فيزداد ميلهم نحو العنف كوسيلة أو كمخرج أساسي، يتعين تعلم أساليبه قبل فواة الأوان.

فأغلب هؤلاء الأطفال قد مروا على الأقل بثلاث مراحل ضمن سيرورة حياتهم:

1 . الأم البيولوجية: وإن لم يكنوا يعرفون عنها أي شيء
2 . المؤسسة الأولى التي احتضنت الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة
3 . دار الأطفال التي تم تقسيمها حاليا إلى مجال للصغار وآخر للكبار

في ظل هذه السيرورات الانتقالية، تصبح القطيعة أو الشرخ أحد المكونات الأساسية لشخصية هؤلاء. مما يؤثر على تمثلهم للزمن وعلى اتجاهاتهم نحو ماضيهم، حاضرهم، ومستقبلهم. إذ غالبا ما يؤدي إحساسهم بافتقادهم للماضي إلى صعوبة تعيين ملامح المستقبل، مما يفسر تركيزهم بشكل ملحوظ على الحاضر والآني. لذلك نجدهم في غالبية الأحيان:

- يرفضون واقعهم ويريدون تغييره مع إحساسهم بالعجز وافتقادهم للإمكانات الضرورية لتحقيق ذلك.
- يخافون من المستقبل
- يجدون صعوبة في بلورة "مشروع الحياة" Le projet de vie
- يميلون إلى بلورة أحلام خيالية بعيدة عن التحقق في الواقع. (فيحلمون بالمال الوفير والشهرة على غرار كثير من لاعبي كرة القدم، كما يحلمون بالوضعية المحترمة، (تكوين أسرة، زوجة وأبناء). ولقد عبر كثير منهم أيضا عن حلمه بالهجرة إلى خارج الوطن كحل سحري لكل معاناتهم.

ويشكل هذا الرفض للواقع في مقابل العجز عن التخطيط للمستقبل بكيفية منطقية أو متوازنة، أحد المؤشرات الدالة على "ضعف الأنا" لدى أغلب هؤلاء الأطفال، مع ميلهم نحو تبني سلوكات التبعية والاتكالية بصرف النظر عن تقدمهم في السن. ومن بين المؤشرات الدالة على ذلك الغموض الذي يجمع ما بين الخوف من المستقبل، الشعور بالعجز والميل نحو الاتكالية، موقف أغلب هؤلاء الأطفال /

المراهقين من المكوث في المؤسسة. فبقدر ما نلمس استياء هؤلاء الأطفال/ المراهقين من مؤسسة "دار الأطفال" ومن ظروف الإقامة فيها، بقدر ما نلمس مدى تشبثهم وحرصهم على المكوث فيها وعدم مغادرتها. بحيث يعتبر بعضهم بأن مكوثه في المؤسسة حق لا منازع فيه، وذلك إلى درجة استعمالهم "للعنف" تجاه المشرفين وتهديدهم بالانتحار في حالة طردهم من المؤسسة. مما أصبح معه تشبث هؤلاء بالمؤسسة ورفضهم الخروج منها، أحد أهم المشاكل التي تعترض مسيري المؤسسة والمسئولين عنها، رغم كل ما يبذلونه من مجهودات من أجل مساعدة هؤلاء من أجل البحث عن العمل سعيا نحو تحقيق الاستقلالية وتمكينهم من مغادرة المؤسسة. وفي هذا السياق أشار الأطفال / المراهقون (بكثير من الاحتجاج والقوة) عن مدى استيائهم من الإسم الذي منح مؤخرا لمؤسستهم ألا وهو "دار الأطفال"، ورغبتهم الملحة في استرجاع الاسم السابق ألا وهو "الخيرية الإسلامية". وذلك إلى درجة عمد فيها بعضهم إلى تكسير اللافتة التي كتب عليها هذا الاسم لمرات متعددة. وتعود مبررات رفضهم لهذه الصفة التي منحت لمؤسستهم إلى مجموعة من المبررات على رأسها:

1 . إن المؤسسة لا تأوي الأطفال فحسب، وإنما ينتمي إليها المراهقون والراشدون أيضا. مما يثير سخرية أهل الحي منهم، علما بكونهم يملكون على المستوى القانوني حق الإقامة في المؤسسة والانتماء إليها.
2 . رفضهم لما يحيل عليه الاسم الجديد للمؤسسة "كدار للأطفال" من نوايا خبيثة، تسعى إلى التخطيط لطردهم والتخلص منهم عند بلوغهم سن 18، بصرف النظر عن مدى تمكنهم من الاندماج أم لا.

ويمثل هذا التشبث بالمؤسسة، مع تصريحهم في الوقت ذاته بخجلهم من الانتساب إليها، أحد أهم التناقضات التي تعكس مدى تخوفهم من المستقبل، إحساسهم العميق بالقلق، بالرغم مما يظهرونه من قوة أو قدرة على التحكم في واقعهم وتدبيرهم لشؤونهم. وتعود الأسباب في ذلك إلى خوضهم لتجربة "الغياب" و"التخلي"، كخبرات عاطفية قوية طبعت طفولتهم. بما يترتب عن ذلك في كثير من الأحيان إن لم نقل أغلبها، من إحساس عميق بالخوف ورغبة ملحة في حماية الذات تجاه واقع كثيرا ما يتم تمثله "كمصدر للخطر". وذلك ما أطلق عليه بعض الباحثون "بالخوف الغير مسمى"، أو "الخوف الغير محدد"[21]، والذي غالبا ما يدفع بالشخص نحو تبني بعض السلوكات الهجومية / الدفاعية، كرد فعل غير إرادي نتيجة تمثله لهجوم مرتقب. مما يقلص من درجة الوساطة الاجتماعية أو الأخلاقية، التي يتم اكتسابها من خلال أشكال التفاعل الأولية وفي مقدمتها الارتباط بالأم .l'attachement إذ من شأن هذا الارتباط القاعدي أن يساعد الطفل على خلق نوع من المسافة ما بين السلوك الهجومي والحاجة إلى الدفاع عن نفسه. فكثيرا ما يعجز الطفل بحكم صغر سنه عن فهم حجم الخطورة التي يمكن أن يشكلها الآخر (لكونها غير واضحة في ذهنه)، إلا أن ذلك لا يلغي إدراكه للخطورة. ويمثل هذا الخلط الحاصل في ذهن الطفل بين إحساسه بالخطر من جهة، وعجزه عن تقديره بكيفية واقعية من جهة ثانية، إحدى الأوضاع المسببة للقلق وبالتالي، الموجهة نحو تبني ردود فعل دفاعية عنيفة ناتجة عن الخوف. الشيء الذي يفسر ميل نسبة هامة من هؤلاء الأطفال إلى:

- المبادرة باستعمال العنف سواء في علاقتهم بالراشدين أو بزملائهم.
- رفضهم للسلطة مع الميل نحو الاستفزاز والتحدي.
- صعوبة ربطهم لعلاقات اجتماعية قارة.
- الرغبة في التشبث بدور الضحية طيلة الحياة، لكونهم لا يتصورون إمكانية استغنائهم عن الآخر.

[21] - John Bowlby, Op.Cit, p.172.

إلا أن السؤال الذي يبقى مطروحا هنا: ما الذي يخيف هؤلاء رغم كل ما يظهرونه من قوة وصلابة؟ هل يعود هذا الإحساس بالخوف إلى شعور عميق بالتهديد؟ أم إلى إحساس لا شعوري بالضعف؟ ثم ما دور المؤسسة في التخفيف من هذا الشعور العميق بالخوف لدى هؤلاء الأطفال؟

للإجابة يمكننا القول، بأن كل طفل يتوفر بالطبيعة على مجموعة من القدرات التي تمكنه من التواصل والتفاعل مع الآخر، وفي مقدمتها تعبيرات الوجه، النظرة، الصوت، الإيماءات، الخ. وعلى الراشدين التفاعل مع هذه الإمكانات الجسدية الأولية بالصوت وبالحركات والتعبيرات العاطفية. إلا أنه لما يعيش الطفل حالة التخلي، التي يغيب فيها حضور الآخر المعتني والمثير لهذه الإمكانات الأولية والمحفز لها على القيام برد الفعل، فإن هندسة الدماغ لا تشكل بالكيفية الصحيحة، مما يؤثر حتما على سيرورة التطور والنمو بكل أبعاده العاطفية والعقلية والسلوكية. كما أن افتقاد الطفل عند تعرضه للقلق إلى مساعدة ومرافقة الراشدين، غالبا ما تدفعه إلى مواجهة هذه الوضعية بمفرده. وبالنظر إلى نقص خبراته فإنه يبقى من المحتمل أن يعجز أو يخاف أو يتردد، مما يصبح معه في حالة قلق مزمنة تؤثر على وظائف الدماغ في شموليتها، وتضر بصحته النفسية والفيزيولوجية.

استنتاجات عامة:

تلك بعض المعالم السيكولوجية لنزلاء دار الأطفال المتخلى عنهم، والتي ندرك من خلالها مدى عجز هذا النوع من المؤسسات عن حماية الأطفال من الوضعية الصعبة، أو مساعدتهم على تجاوز "إحساسهم بالتخلي" مهما توفرت عليه من إمكانيات. بل يمكننا القول بأن الانتماء إلى هذه المؤسسات قد يساهم في تعميق معاناة الأطفال، بسبب "تنميطهم" كأطفال متخلى عنهم على المستوى الاجتماعي والقيمي، مما يؤثر سلبا على نموهم النفسي والعقلي والسلوكي ويرسخ آلامهم ويغذي مشاعر الإقصاء والتهميش والرفض بداخلهم. فإذا كان هؤلاء الأطفال يفتقدون لأية مرجعيات اجتماعية تمكنهم من تعيين انتماءاتهم، فإن ذلك لا يلغي اضطرارهم إلى بلورة هويتهم من هذا "اللاشيء" وبناء ذواتهم انطلاقا منه، مع العلم بأن المعرفة بالتاريخ الشخصي تشكل أحد المكونات الأساسية للهوية الذاتية. الشيء الذي يعمق إحساسهم بالتهميش، ويراكم مشاعر الغيظ والحقد ويخلق الرغبة في الانتقام لدى بعضهم. على اعتبار أن هذا "اللاشيء" الذي يجب أن ينطلق منه الطفل يشكل في حد ذاته عنفا، وبالتالي يحتمل أن يوجهه نحو العنف.

إلا أن ورود هذه الملاحظات لا ينفي تمكن نسبة من هؤلاء الأطفال، من تحقيقهم للتوازن العاطفي وتمكنهم من الاندماج الإيجابي في المجتمع ونجاحهم في حياتهم على المستوى الشخصي والمهني. وذلك لأنه لا استحالة مع الإنسان، لتوفره بالطبيعة على جهاز نفسي أبرز ما يميزه هو قدرته على التأقلم وإعادته للهيكلة والبناء بشكل يصحح ويرمم مختلف الآلام والجراح. وكلما تعلق الأمر بانتقال الطفل إلى ظروف مغايرة في سن مبكرة كلما تمكن الأنا من ترميم هذا الفقدان، مساعدا الطفل على تجاوز مختلف أشكال القلق والخوف الناتجة عن الخبرات المرتبطة بالطفولة المبكرة. وبناء على ذلك، فإذا كان من اللازم في بعض الأحيان فصل الطفل عن آبائه بسبب المرض أو العجز أو اليتم الخ. فإنه يبقى من الأفيد البحث عن قريب يتولى كفالة الطفل أو البحث عن أسرة للتبني. فلا يتم اللجوء إلى المؤسسات الإجتماعية الإيوائية إلا في حالة استنفاذ كل الحلول، إذ يتعين على هذه المؤسسات أن تكون مجرد وسيط إلى حين حصول التبني/ الكفالة. وتبين مختلف التجارب في مناطق متعددة من العالم بأنه مهما ارتقت الإمكانيات المادية لهذه المؤسسات، فإنها لا تعوض الفراغ العاطفي ولا تساعد الطفل على تجاوز إحساسه بالتخلي. ومن بين التدابير التي يبقى من اللازم اتخاذها في هذا المجال، السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، تمكين الأسر، العناية بأوضاع النساء، ثم الاجتهاد على مستوى النصوص والقوانين التشريعية وفي مقدمتها نظام "الكفالة" للتوفيق بينها ومقتضيات التغيرات الاجتماعية المعاصرة، وتيسير إجراءاتها.

وختاما نقول، بأن فتح ملف الأطفال المتخلى عنهم، هو في ذات الوقت فتح لملف الهشاشة في المغرب، ومؤشر دال على مدى حاجتنا إلى سياسات اجتماعية هادفة تساير وتتحكم في التحولات السريعة التي يعيشها المجتمع المغربي على مستويات متعددة وفي مقدمتها أوضاع النساء[22]. مما يستنتج معه بأن معالجة ظاهرة الأطفال المتخلى عنهم، تقتضي مقاربة هذه الظاهرة بشكل بنيوي، يهدف إلى إشراك جميع الفعاليات، تحقيقا للمواطنة الكاملة، وحفاظا على الرأسمال البشري باعتباره دعامة لكل مشروع تنموي.

[22] - وتبين نتائج بحث قامت به منظمة غير حكومية "إنصاف" في الدار البيضاء ، بأن التخلي يرتبط بأمهات يعشن في وضعية صعبة . إن نسبة هامة من الأمهات العازبات يتزوجن سنهن ما بين 16 و 34 سنة أغلبهن نساء شابات، بدون تأهيل، أميات أو بمستوى تعليمي متدني. بحيث أن 50 % منهن وقعن في الحمل بسبب تصديقهن لوعد بالزواج، و28 % وقعن في الحمل بسبب علاقة حب ، وبأن14 % فقط هن اللواتي وقعن في الحمل نتاج البغاء)

قائمة المراجع:

- أحرشاو، الغالي. الطفل بين الأسرة والمدرسة، منشورات علوم التربية، 19، الطبعة الأولى.
- التجديد، 11 / 02 / 2009.
- السباعي خلود، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، جداول، لبنان، 2011.
- السباعي خلود، المرأة والعنف، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2016.
- حجازي مصطفى، الصحة النفسية، منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، لبنان، بيروت،2006.
- حدية المصطفى، دراسات حول الطفولة والشباب : مقاربة نفسية اجتماعي، مطابع الرباط نت، الطبعة الثانية، 2013.
- حدية المصطفى، قضايا في علم النفس الاجتماعي، منشورات المجلة المغربية لعلم النفس، الطبعة الأولى، الرباط، 2004.
- قرنفل حسن، الفقر من الإحسان إلى التنمية البشرية، دار الأمان، الرباط، 2017.
- وزارة التضامن والمرأة والأسرة والتنمية الاجتماعية، مؤسسات الرعاية الاجتماعية : تقرير عام، دجنبر 2013.
- عزيز بنعيش و عبد الرزاق عريش، مديرية التشريع، ورقة حول المؤسسات المهتمة بالطفولة. (عدم وجود تاريخ النشر)
- "مأساة يلفها الصمت: ظاهرة التخلي عن الأطفال في المغرب"، ميديا 24 ، عدد 23 يونيو 2018

- Claude Miollan, Abandon – acculturation, Intégration et exclusion : quelle société pour le 21° siècle,Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines– Rabat, 2007.
- Gustave Nicolas, Fischer, Les concepts fondamentaux de la psychologie sociale, DUNOD, Paris, 1978.
- Hélène Cauchat, «Du fondement social de l’identité», De l’identité du sujet au lien social, P.U.F, Paris, 1999.
- Haddiya, Elmostafa. Jeunesse, éducation et changement social, Ed, Rabat Net, Rabat, Maroc, 2014
- John Bowlby, La separacion, Paidos, Psicologia profunda, Madrid, 2010.
- de la M.José, Rubio y Silvina Monteros, La exclucion social: Teoria y practica intervencion, Editorial CCS, Madrid, 2004.